مشكلة الألوهية
في
ضوء علم الكلام

دكتور / عماد الدين محمد مصطفى رجب
الأستاذ المساعد بقسم العقيدة والفلسفة
كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالإسكندرية

بســـم الله الرحمن الرحيم

مســـــألة الالوهيـــــة

تمهيـــــد :

الألوهية من المسائل التى شغلت الانسان من اللحظات الاولــــى لمعاناته الحياه ذلك ان الانسان يشعر دائما بالحاجة الملحة للقوة التى تحميه ، ولقد كان أحوج الى ذلك فى بدء حياته حيث كان يعيش وسـط وحوش ضارية وطبيعة طاغية يحتاج الى تطويعها ليتمكن من استغلالها .

واذا كان من العسير أن نحدد (فى ضوء الابحاث الانثربولوجيـة) اللحظة الاولى التى بدء فيها الانسان القديم تدينه وكيفية هذا التدين ، الا أن مالا نستطيع انكاره هو أن التدين من الظواهر التى اختص بهـا الانسان .

فاذا جاز لنا أن نعرف الانسان بأنه حيوان مفكر فانه من الادعى ان نسميه حيوانا متدينا ، لكن بما كان يدين الانسان وعلى أيه صورة كـان الهه الذي يتضرع اليه ويتشبث به عند الشدة ويتوجه اليه عند الرجـاء ؟ ومهما تكن تفسيرات موءرخى الاديان الألوهية الا انه وفقا للتفسير الدينى وتمشيا مع مبدأ الخلق الذي نصت عليه الكتب السماوية يكون الانسان قـد عرف ربه منذ اللحظة الاولى من حياته .

واذا كان الانسان قد اتخذ لنفسه الهه مادية توجه اليها بالعبـادة فانه لم يتخذها لذاتها وانما لتكون واسطة بينه وبين الرب قال تعالـى : " ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفا " (١)

(١) سورة الزمر ايه (٣) .

واذا كانت نظرة الاديان مللها ونحلها الى الالوهية قد أخذت أشكالا مختلفة فان الاسلام قد أطلق منذ اللحظة الاولى مبدأ التوحيد والتنزيه ، ولقد شغل اصحاب الصدر الاول فى ايمانهم بالقرآن والسنه ويتدبرونها ويلجأون اليها فى كل ما يدور من جدال فلم يشغلوا انفسهم بالتفاصيل التى تتعلق بالاله من حيث ماهيته وصفاته وكيفية التدليل عليه بل ان منهم من كره الخوض فى ذلك .

سئل ربيعة الراى عن قوله تعالى : " الرحمن على العرش استوى " سورة طه ، آيه ٤ / كيف استوى فقال : الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول ومن الله الرسالة وعلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم البلاغ وعلينا التصديق . سال مالك بن أنس هذا السوءال نفسه فأجاب اجابة مشابهة وقال : الاستواء غير مجهول والكيف غير معلوم والايمان به واجب والسوءال عنه بدعة ، لكن الحال لم تدم على ذلك فقد فتحت الامصار ووفدت الثقافات الاجنبية الى المسلمين ورأوا أن أمامهم سيلا من التيارات الفكرية المختلفة بين شرقية وغربية ينبغى عليهم مواجهته وأنهم التحموا بأقوام يحملون من العقائد ما يجب مقاومتها والرد عليها دفاعا عن عقيدة الاسلام .

فمن بين هذه التيارات التيار الفارسى الذى عرض لفكرة الالوهية مناديا بالهين واحد للنور وآخر للظلمة ، وتمثل هذا الرأى الزرادشتية والمانوية والمزدكية ، ومنها التيار اليهودى الذى يمثل ديانة سماوية أساها التوحيد وفيها اوصاف للاله توءذن بالتشبيه .

وقد سمح هذا التيار بتسرب كثير من الاسرائيليات فى صورة قصص وأحاديث اختلطت بالثقافة الاسلامية ومنها تيار المسيحية بما احتوت من آراء حول التثليث كالبحث فى طبيعة المسيح الذى تناولته طوائفهم الدينية من ملكانية ونسطورية ويعاقبة .

لذلك شحذ المسلمون هممهم وتوجهوا بعقولهم الى هذه التيارات التي كانت ذات صلة بمشكلة الالوهية في الاصل ، والتي سرت الى العالم الاسلامي هزيلة مستترة في أول الامر ثم قويت وكشفت عن نفسها ، ومن الخطأ البين الزعم بأن المسلمين قد أخذوا بهذه الافكار بدون أن يعملوا عقولهم فيها وأن يعدوا لانفسهم منهجا يتوافق مع طبيعتهم وما لديهم من مشاكل فكرية .

فقد حاولوا ان يحلوا مشاكلهم بأنفسهم قبل كل شيء ، واستعانوا أحيانا بحلول سابقة ومشاكل تتشابه بمشاكلهم غير أنهم تخيروا منها ما ارتضوه وابتكروا أحيانا حلولا لم يسبقهم اليها أحد .

وقد أدى ذلك الى ظهور عام الكلام الذي أتاح لكثير من الفرق الاسلامية الخوض في مسائل الالوهية والنبوه واليوم الاخر .

ولم يكن البحث في هذه الامور في بداية الامر يأخذ طابعا منظما في صورة مذهبية وانما كان يتناول مشاكل متفرقة أملتها ظروف خاصة وسرعان ما تغير الحال فنشأة مدارس علم الكلام المختلفة والتي تبنت هذا العلم ونقبه ونهجته حتى اصبح علم اسلامي مبتكر ، وأبرز هذه المدارس واولها مدرسة المعتزله التي يرجع اليها الفضل في نشأة علم الكلام .

الالهيـــــات

من بين ما تناول المتكلمون من المشكلات مشكلة الالوهية وقد واجههم في هذه المشكلة تيارات مختلفة منها التيار النصارني القائل بالتثليث الذي يعني ان الاله واحد في ثلاثة اقانين ٠

والتيار اليهودي الذي وان نادى بالتوحيد الا انه صبغ الاله بصبغة تجسيدية فقد وردت ايات في كلا من العهد القديم والحديث صورت الأله بصورة جسمانية تضاهي الصورة البشرية (فقد ذكر ان الله بكى على الطوفان حتى رمضة عيناه) (وقد ذكر ان الله قد اتم بناء الكون في سته ايام واستراح من عمله في اليوم السابع) كما ذكر (ان الله خلق ادم على صورته) وايضا ما ذكر (من ان يعقوب) قد لقى الرب ووقع بينهم شجار انتصر فيه يعقوب عليه وكسر حقه (اى فخذه) ٠

كل هذه النصوص توضح الصورة البشرية التي أصبغها اليهود على الههم ، واذا كان التياران السابقان يمثلان تحريفا في ديانتين سمائيتين فان هناك تيارات أخرى تمثل النحل الأرضية من بينها الثينوية القائلون بألهين أحدهما للنور وهو مصدر الخير ٠ والثاني للظلمة وهو مصدر الشر ٠ كل هذه التيارات قد جابها المتكلمون وكان عليهم ان يردوا عليها وان يجادلوها بالروح الاسلامي روح التوحيد الخالص الذي نادت به كل الرسالات السماوية ودعا اليه كل انبياء الله ٠

فنادى به نوح حيث قال لقومه (لقد ارسلنا نوحا الى قومة فقال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من المغيره) سورة الاعراف / اية ٥٩ ٠

وكذلك دعا اليه هود قومه : (اعبدوا الله مالكم من اله غيره)الاعراف اية ٦٥ ٠ وكذلك سائر انبياء الله ٠

كان على المتكلمين اذن ان يعارضوا كل هذه التيارات المحرفة وان يجادلوا في سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنه .

ولقد اجمعت فرق المتكلمين على التوحيد لم يخالف منهم فيها احد ولم يقع بينهم فيها نقاش فالله واحد في ذاته واحد في صفاته واحد في افعاله لا يشبه اخر في خلقة ولا يشبه احد من خلقه (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) سورة الشورة / اية (١) .

وقد اتجهوا في هذا التوحيد الى قمة التنزيه والتجريد فارتفعوا بالخالق عن أي شيء يتنافى وكماله او يشوبه باى نقص .

وقد قدموا على وحدانيته تعالى ادله منها العقلى ومنها النقلى واشهر ادلتهم العقلية :

دليل التمانع وخلاصته :

انه لو كان في الكون الهان لكان اما ان يكون أحدهما عاجز والثاني قادرا ، او ان يكونا عاجزان معا او قادران معا واذا كان الأول اى ان احدهما قادرا والثاني عاجزا لكان وجود الثاني عبثا .

اما ان كان الاثنان قادران فان وقوع الشقاق والخلاف بينهما متحتم وذلك لرغبة كلا منهما في الاستئثار بالايجاد أو الأعدام . اما ان كان الاثنان عاجزان فواضح البطلان وهو مأخوذ من قوله تعالى (لو كان فيهما اله الا الله لفسدتا) .

أما الادله النقلية فاشهرها قوله تعالى : (وما كان معه من اله اذن لذهب كل اله بما خلق ولعلى بعضهم على بعض) .

مشكلـــة الصفـــات :

لقد شغلت مشكلة الصفات مفكروا الفرق الاسلامية ويرجع ذلك الى امرين رئيسين :

اولهمـا : ١- ما ورد فى القران الكريم من صفات وصف بها البارى نفسه كقوله (ان الله سميع بصير (١) "وهو بكل شىء عليم" (٢) "ان الله على كل شىء قدير" (٣) " فعال لما يريد " (٤)

وقد كان هوءلاء المفكرون فى حاجة الى أتخاذ موقف من مثل هذه الأيات . ذلك ان الفكر الاسلامى قد كان فى أول أمره بعيد عن الجدل يكره الخوض فيه ومرجع ذلك الى أن المسلمين فى الصدر الاول كانوا يتحرجون من الخوض فى المسائل الجدليه .

وقد نهاهم الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك من جهه فقد روى عن أبى هريرة (رضى الله عنه) ان رسول الله - صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابة وهم يتنازعون فى القدر فقال : ما بهذا بعثت اليكم وما بهذا أمرتكم انما هلك من كان قبلكم انهم تنازعوا فى القدر عزمه عليكم ألا تنازعوا) حديث شريف .

كما ان وجود الرسول بينهم قد كفاهم مؤنته الجدل من جهه أخرى فقد كانوا يرجعون اليه كلما أستغلق عليهم آمر فكان يفتيهم فيما استغلق عليهم .

---

(١) سورة الحج ايه (٧٥)
(٢) سورة البقرة ايه (٢٩)
(٣) سورة البقرة اية (١٤٨)
(٤) سورة البروج اية (١٥)

ثانيهمـــا :

٢- ان المسلمين لم يظلوا على هذا الحال زمن طويل فسرعان مـــا فتحت البلاد واختلط المسلمون بأهل البلاد المفتوحة وأطلع على ثقافتهم واضطروا الى جدالهم وحوارهم لا سيما وأن أهل الملل في البلاد المفتوحة لم يكونوا على سذاجة كأهل الملل في الجزيرة العربية ٠

وقد أستصدم المفكرون المسلمون بالنصارى القائلين بأن الأله واحـــد في ثلاثة أقانيم ٠ والأقانيم جمع أقنوم ويعنى الاقنوم (١) : الاصـــــل والجوهر والشخصى ٠ والاقانيم الثلاثة عند المسيحين هي الأب والابـــن والروح القدس ، وبهذا المقالة اعتبر النصارى معددين ٠

وقد خشى مفكرو المسلمين من القول بالصفات مخافة أن يوقعهم هذا في التعدد فحاولوا ايجاد حلول للمشكلة تبعدهم عن ذلك التعدد وتحقق لهم مبدأ التوحيد الذى هو الاصل الاول في دينهم ٠

وسوف نحاول عرض اراء أشهر الفرق الاعتقادية في هذا الموضـــــوع بشكل أجمالي لنتبين كيف وضعت كل فرقه لهذه المشكلة حلول تتناســـب واتجاهاتها الرئيسية ولا يفوتنا ان تنوه الى ان الفرق الاسلامية تنقســـم الى : عملية ، واعتقادية ٠

أما الفرق العملية : فهم المشتغلون بالمسائل العملية في الديـــن أى المشتغلون بالفقه وأصوله ، ويطلق على هؤلاء اسم المذاهـــــب غالبا ٠

---

(١) المعجم الفلسفى جـ١ ، ص ١١٢

اما الفرق الاعتقادية : فهم أولئك الذين يشتغلون بالاصول الاولى التي ترتبط بالامور العقدية كالبحث في الالوهيات والنبوات ، واليوم الاخر وما الى ذلك . ولذلك يطلق عليهم الفرق .

موقف المتكلمين من مشكلة الألوهية

١ـ السلفيون :

تعريف السلفين : (١) يراد بالسلفين من ياخذون بالمأثور ويوثرون الرواية على الدراية ، والنقل على العقل . ويسمون أهل السنه والجماعة لانهم يرون مسلكهم الأصل ، وما عداه خروج عليه . وكان المسلمون في الصدر الاول سلفيين جميعا ، لا ياخذون في الأصول والفروع الا بما ورد في الكتاب والسنه آمنوا بالله من غير بحث ولا جدل . وفهموا الآيات القرآنية فهما مجملا على حسب ظاهرها فهم لا يوءولون ولا يشبهون بل ينزهون ويفوضون (٢) ، سئل ربيعة (عبد الرحمن شيخ مالك) (١٣٥ ، ٧٥٣) عن قوله تعالى " الرحمن على العرش استوى (طه / ٥) فقال " الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التصديق . "

وسئل تلميذه مالك بن أنس (١٧٨ = ٧٩٥) السوءال نفسه فأجاب اجابة مشابهة ، وقال : " الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول والايمان به واجب ، والسوءال عنه بدعه " ويوم أن ظهرت الفرق وتعددت الاراء ، سلك هذا المسلك عدد كبير من المسلمين وعدوا سلفيين

---

(١) كتاب (السلفية بين العقيدة الاسلامية والفلسفة الغربية) للدكتور مصطفى حلمي ص ٥٠ ـ دار الدعوة .

(٢) نشأة الاراء والمذاهب والفرق الكلامية) يحيى هاشم حسن فرغلي ص ٦٤ من مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية

وان باعدت بينهم وبين الصدر الأول قرون طويلة فابن تيمية مثلا ، وهو من رجال القرن الثامن الهجرى - سلفى كالحسن البصرى (١١٠-٧٢٩) وهو من رجال القرن الأول . ولا يزال بين المسلمين المعاصرين من يؤثر الاتجاه السلفى ، ويعد نفسه من السلفيين .

وتتخلص عقيدة السلفيين في أن الله واحد ، فرد صمد ، لا اله غيره ولا معبود سواه ، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا . هو حى ، عالم قادر سميع ، بصير ، مريد ، متكلم . والقران كلام الله ، وهو غير مخلوق ولله وجه لا كالأوجه ويد لا كالأيدى ، ويرى بالأبصار يوم القيامة فهم صفاتيه يثبتون صفات الله وأسماءه الحسنى كما وردت ، وينكرون التعطيل والمعطلين وهذه عقيدة تاخذ الأمور على ظاهرها وتصورها بصورة مألوفة من البشر ، مع الأستمساك بالتنزيه ومخالفة الحوادث، فلا فلسفة فيها ولا تعقيد ، وهى دون نزاع تلاؤم العامة وتقدم لهم صورة سهله للايمان والاعتقاد . ونلاحظ أن هذه العقيدة فى نزعتها الظاهرية تؤذن بشئ من التشبيه ، وتفسح المجال للمشبهه من حشوية وشيعه أفسدوا الاسلام بما أدخلوا فيه من اسرائيليات ، وما وضعوا من أحاديث وتؤذن كذلك بالتجسيم الذى قال به الكرامية ، وأظهروا الالوهية فى صورة مادية منكرة . ويمكننا ان نحدد فى ايجاز موقف السلفية من مشكلة الصفات فى أنهم يحملونها على ظاهرها كما وردت فى القران الكريم ويفوضون معانيها وكيفيتها لله تعالى فهم لا يقبلون التأويل ولا يميلون الى الى التفضيل وانما صفة معلومة وكيف مجهول وعلم بها واجب وخوض فيها بدعة .

المعتـــزله

وإذا كان السلفيون قد ضيقوا (في تناول مسأله الصفات ففوضوا ولك يؤلوا بل حملوا المسائل على ظاهرها وأمروها كما جاءت٠

فقد قابلهم فريق اخر اشتط في التوسع بغية التنزيه كان مسلكه في تناول مسألة الصفات مسلكا مضادا لمسلك السلفيين وهم المعتزلة وقد اختلف الباحثون حول هذه التسمية (١) فذكر البعض أنهم أحفاد تلك الجماعة التى اعتزلت النزاع بين على ومعاوية وفرت خوفا على دينها الى مصر ٠ وفريق ذكر انهم سموا بالمعتزلة نسبة الى ما اطلقه الحسن البصرى على واصل بن عطاء حين دخل على الحسن في مجلسه من يسأله في حكم مرتكب الكبيرة وقبل ان يجيب الحسن قال واصل بن عطاء : لا اقول انه مؤمن ولا كافر وإنما هو فاسق في منزلة بين المنزلتين أى منزلة الايمان ومنزلة الكفرفقال الحسن : اعتزلنا واصل ومن ذلك اليوم ترك واصل مجلس الحسن وانتحى الى اسطوانه بالمسجد هو واصحابه يلقى فيها دروسه ويناقش فيها أصحابه٠

وواصل هذا من أوائل شيوخ المعتزلة بل هو الشيخ الاول ٠ للمعتزله ان جاز لنا هذا القول ٠ لذلك فان البعض يذهب الى ان اسم الاعتزال قد لحق بهذه الطائفة بسبب ذلك٠

وقد تسمى المعتزله باسماء اخرى منها اسماء احبوها ورغبوا فيها واخرى كرهوا التسمى بها لانها من اطلاق خصومهم عليهم وكذلك لانها تنسب اليهم ما ليس من مذهبهم ٠ ومن بين هذه الأسماء : القدرية ـ والجهمية (وهو مما يكرهون) ومنها أهل العدل وهو من الاسماء الاثيره لديهم٠

---

(١) الاخبار الطوال) الدينورى ص١٣٠٠

ويعتبر المعتزلة المؤسسين الحقيقين لعلم الكلام حيث كان قبلهم مجرد جهود لافراد (كالجهم بن صفوان ـ والجعد بن درهم ـ) (وكمعبد الجهني وغيلان الدمشقي) وغيرهم ممن كانت لهم اسهامات بدأية في علم الكلام لكن المعتزلة هي المدرسة الحقيقية التى اسست علم الكلام وبوبت مسائلة ووضعت له منهج وناقشه خصوم المسلمين وناظر من خالفوا المعتزلة في بعض آرائهم أو مبادئهم ٠

ولقد قام منهج المعتزلة على أعلاء العقل وتقديمه باعتبار ان له القدرة على أدراك ما في الافعال من حسن وقبح ٠

ولذلك قامت دراستهم لعلم الكلام على اساس تقديم الادله العقلية وتدعيمها بالنص باعتبار ماله من قداسة فهم مع القول بقيمة العقل لا يهملون النص بل يعتبرونه المصدر الرئيسي الذى يدعمون به العقل ٠ وقد وضع المعتزله أصولا خمسة بنوا عليها مذهبهم وهى :

١ـ التوحيد
٢ـ العدل
٣ـ المنزله بين المنزلتين ٠
٤ـ الوعد والوعيد
٥ـ والقول بالمعروف والنهى عن المنكر ٠

ولسنا في مجال التفصيل ولكننا فقط نشير الى هذه الاصول بوصفها الركائز التى قام عليها مذهب المعتزله ٠

ولقد مر مذهب المعتزله بعدة تطورات على يدى مجموعة من شيوخ المذهب من اشهرهم :

١ـ واصل بن عطاء (ت ١٣١هـ)
٢ـ عمرو بن عبيد (ت ١٤٤هـ)
٣ـ ابو الهزيل العلاف (ت ٢٣٥هـ)

٤ـ أبراهيم النظام (٢٥٦هـ)
٥ـ ابو على الجبائى (ت٣٠٣هـ)
٦ـ ابو هاشم الجبائى (ت ٣٢١هـ).
٧ـ القاضى عبد الجبار (ت ٤١٥هـ).

ويعد القاضى عبد الجبار من أشهر الرجال ويرجع ذلك إلى كثرة مؤلفاته وإلى ما له من ثاقب نظر فى مسائل علم الكلام جليلة ودقيقة ويراد بجليل الكلام تلك المسائل التى تتعلق بما فى علم الكلام من مسائل الطبيعيات كالجوهر ـ والعرض ـ والجسم وغير ذلك أما دقيق الكلام فيراد به ما يتعلق بما بعد الطبيعة أى بالألهيات والسمعيات.

ومن أشهر مؤلفات القاضى عبد الجبار :

أـ (المغنى فى أبواب التوحيد والعدل) ويقع فى عشرين جزء تقريبا وهو شامل لجميع أبواب علم الكلام ويعد موسوعه كلامية رائعة وقد فتح العثور عليه حديثا مجالا كبيرا فى فهم المعتزله ومسائل علم الكلام عند هم.

ب ـ (المحيط بالتكليف) وهوعبارة عن امالى أى (محاضرات) القاها الشيخ على تلامذته.

جـ ـ (طبقات) المعتزله وفضل الاعتزال)

الى غير ذلك من المؤلفات التى بوئت الرجل مكانه رفيعة بين اهل العلم. وقد مكنت مدرسة الاعتزال البحث العقلى فى مسائل العقيدة من الازدهار وفتحت أبواب النشاط الذهنى على مصرعيها وإن كان خصوم المعتزله قد رموهم بتهم شنيعة ليس هنا مجال لمناقشتها والرد عليها. إلا أن المعتزلة فى جملتهم كانوا مسلمين مخلصين لدينهم. اندفعوا فى تنزيه الآله الى ابعد الحدود مستخدمين فى ذلك كل وسائل المنطق والاقناع ومقدمين أروع الأبحاث فى هذا المجال.

واذا كان هذا المذهب قد انكمش من الناحية التطبيقية الا أنـــه لا يزال مجال للبحث والدراسة حتى يومنا هذا .

موقفهـــم مـــن الالوهيـــة

لم تحظى فكرة الالوهية بعناية عند احد من المتكلمين كما حظيـت به على يدى المعتزله فقد بذلوا فيها من الجهد ما جعلها جديرة بان تضعهم في مصاف المجددين . وقد كان كل هدفهم المحافظة علـــى توحيد البارى وتنزيه ، لذلك وجهوا بحثهم فى الصفات هذه الوجـــه وقد كانوا يستشعرون خطر القول بالصفات مخافة أن يوقعهم فى التعـدد كما اوقع النصارى من قبل كما سبقت الاشارة الى ذلك.

لذلك فقد قالوا بصفات للبارى لكنها ليست غيره فالصفــــــات عندهم عين الذات فالله عالم بعلم هو ذاته ، وحى بحياة هى ذاته .

ومن اوائل من تكلم فى الصفات من رجالهم (ابو الهزيل العلاف) وتتلخص اراءه فى التالى :

أ- الصفات عين الذات (وابو الهزيل) اول من قال بذلك فالصفات عنده لا تختلف عن الذات فالله عالم بعلم هو هو اى علمه عين ذاته ، وقادر بقدرة هى هو الى غيره ذلك من الصفات .

وتتضمن هذه الصفات سلب اضدادها عنه تعالى فعندما نقول : (١) عالم فاننا نقول بعلم هو ذات الله وننفي فى نفس الوقت الجهل ، وكذلك اذا قلت قادر : نفيت عنه عجزا واثبت له قدرة .

ولا يعنى قول العلاف ان الصفات عين الذات نفى هذه الصفـــات عن الله وانما هى اثبات لهذه الصفات باعتبارها بعينها الذات وانمـــا

---

(١) البغدادى (الفرق بين الفرق) ص ١٢٢-١٣٢

ياتى نفي الصفات عندما يقال انه عالم بذاته وقادر بذاته ولنقرأ قول الشهرستاني القائل : (١) " عالم بعلم هو ذاته " ففى ذلك اثبات صفة هى بعينها ذات وذلك هو راى العلاف ، وبين القول : عالم بذاته لا بعلم " ففى ذلك نفى الصفة أو اثبات ذات مجردة عن الصفة ٠

وقد استقى ابو الهزيل فكره في الصفات من تسوية السلف للوجه بذات الله تعالى في قوله تعالى / " إنما نطعمكم لوجه الله " سورة الانسان / اية ٩) حيث قالوا المراد بالوجه هنا ذات الله ٠

وينقل الخياط صاحب كتاب (الانتصار) راى ابو الهزيل فى ذلك (٢) (قال أبو الهزيل ولقولى هذا نظائر عند اهل التوحيد وذلك انهم بأجمعهم يقولون : ان وجه الله هو الله ، لان الله قد ذكر الوجه فى كتابة فقال : " إنما نطعمكم لوجه الله " وقد فسد ان يكون لله وجه هو بعضه ، أو وجه صفة له قديمة معه ـ جل الله وتعالى عن ذلك ـ فلم يبق إلا أن يكون وجهه هو ، كما يقال : هذا وجه الأمر أى هذا الامر نفسه وهذا وجه الراى هذا هو الراى نفسه ، فلما كان هذا هكذا وفسد أن يقال : ان لله وجها او ان للراى وجها فكذلك قلت انا : ان علم الله هو الله كما قال قائلكم : إن وجهه هو واذا كان شيوخ المعتزلة قد اختلفوا فى التفصيلات فانهم جميعا يجمعون على التسوية بين الذات والصفات ولا يرون القول بصفات قائمة بالذات على أى نحو انما الصفات هى عين الذات ٠

---

(١) (الملل والنهل) للشهرستاني ص٥٠

(٢) ابو الحسين الخياط (الانتصار) ص ٥٩ـ٦٠ بيروت ١٩٥٧٠

الاشـــاعرة

بعد أن تعرضنا لآراء الفرقتين المتضادتين آن لنا أن نحط الرحال عند أصحاب الوسط لنرى كيف كان موقفهم من مشكلة الصفات ٠

نشأة الاشعريـــة :

كانت الأشعرية (في نشأتها) تلبية لحاجة ملحة فقد كانـــت الساحة الإسلامية تعج بالآراء والتيارات وكان من ابرزها التياران المتطرفان اللذان سبقت الاشارة اليهما ، تيار اليمين ويمثلهم السلف ـ وتيار اليسار ويمثلهم المعتزله إن جاز لنا أن نستعمل تعبيرى اليمين واليســـــار لمصطلحين سياسين فى هذا المجال ٠

وكانت الجماهير تتطلع إلى تيار معتدل يتجه إلى التوسط الـــذى يرضى غالبا أذواق الجماهير ويستجيب لرغباتهم ٠

لذلك فإن الأشعرية التى نشأة على يدى أبو الحسن الأشعـــرى الذى أمضى معظم حياته واحدا من المعتزله كانت هى الأخرى نتيجـــة أدت بصاحبها إلى إعتزال جديد إن جاز لنا هذا القول ٠

فقد وردت الروايات بأن الأشعرى راى رسول الله ـ صلى اللـــه عليه وسلم ـ فى منامه يأمره بنصرة الكتاب والسنة فكان ذلك دافعـــا للاشعرى على ترك الاعتزال وتكوين مذهب جديد عرف باسمه فيما بعـــد هو الاشعرية) ٠

وسواء كان هذا هو السبب فى ترك الاشعرى للاعتزال ام كانـــت هناك اسباب اخرى فان الذى يعينيا هو ان الاشعرى قد كون مذهبـــه الجديد على راس الاربعين و التزم فيه بالنص واعتباره العقل خادم للنص يلجأ إليه في توضيح مذهبه وتقديم الادله التى تدعمه ٠

اشهر شيوخ الاشعرية

١- ابو الحسن الاشعرى (ت ٣٢٤هـ)

٢- ابو بكر الباقلانى (ت ٤٠٣هـ) ويعد الباقلانى المؤسس الحقيقى لمذهب الاشعرى اذ انه الذى وضع الاشعرية فى صورة منهجية ونسق قضاياها وصنف نظرياتها مما اخرج المذهب فى صورة نسقية منظمة .

٣- عبد القاهر البغدادى (ت ٤٢٩هـ) .

٤- ابو المعالى الجوينى (ت ٤٧٨هـ)

٥- ابو حامد الغزالى (ت ٥٠٥هـ / ١١١١م)

٦- الشهرستانى (ت ٥٤٨هـ / ١١٥٣م)

٧- فخر الدين الرازى (٦٠٦ هـ) .

منهـــج الاشعـــرى :

سبق ان اشرنا الى الاسباب التى ادت الى تحول الاشعرى عـن الاعتزال ، وكيف انه كان يبغى تحقيق وسط يبتعد بالمسلمين عـن التطرف الذى كان يتسم به كل من العقليين والنصيين .

وقد عمل الاشعرى على تحقيق منهجه هذا على النحو التالى :

أ- لم يرفض الاشعرى العقل طريقا الى صياغة الدليل فى مسائل العقيدة فهو ان كان فى بداية انشائه مذهبه قد تقرب من الحنابلة واثنى فى كتابة " الابانه " على الامام ابن حنبل ، وجعله من الذيـن يتبرك بهم ، الا انه راى عندما نضج المذهب ان الالتـــزام بالنص دون تاويل يؤدى به الى نوع من التوقف فلا يعطى للعقل المجال لتفسير النصوص ، بما يسمح بالرد على الذين لا يؤمنـون بهذه النصوص . ذلك ان من لا يؤمن بالكتاب والسنه ، لا يسهل اقامة الدليل له منهما بل لابد من اقامة دليل عقلى يؤدى الـى اقناعه .

ب- لكن الاشعرى : وإن امن بوظيفة العقل على هذا النحو لا يـرى الاعتماد على العقل وحده ، إذ ان كثيرا من امور الديـن لا يستطيع العقل الاستقلال بها . وعلى ذلك فان وسطية الاشعرى تتجلى فى تحديد وظيفة لكل من العقل والنص .

فالامور السمعية كالحشر والنشر والحساب والصراط مثلا لا يستطيع العقل ان يدلى بدلوه فيها ، بل هى وقف على النص وحده . امـا الامور العقلية والحسية فمردها الى ادواتها .

إن لم يكن قد وقع في دائرتهم ٠

ولعل مما عاق الأشعرى عن بلوغ الوسط الدقيق فى مذهبه إختلاف أصناف المجادلين له وتعدد مذاهبهم ومناهجهم ٠

ويصف الدكتور الأهوانى منهج الأشعرى قائلا : " الأشعرى لم يتطرف فى التاويل العقلى كالمعتزله ، أو يستهجن البحث الكلامى كالحنابلة ، ولكنه وفق بين الجانبين ، واعتمد على الحجة العقلية واستطاع مذهبه أن يضع للفتن الدينيه حدا فقضى على مذهب المعتزله وحل مكانه " ٠

موقف الاشاعرة من الالوهيـــة :

يخالف الأشاعرة المعتزلة فى مسألة الصفات : فعلى حين يذهب المعتزلة إلى نفى الصفات عن البارى ، ويرون أن الصفات هى عين الذات ، فالله عالم هو ذاته ، وقادر بقدرة هى ذاته يرى الأشاعرة أن لله تعالى صفات ، وأن هذه الصفات لا هى عين الذات ولا هى غيره ٠

وكان على الأشاعرة — وقد قالوا بأن لله تعالى صفات وانها ليست عين الذات — وأن يضعوا من الحجج ما يخرجهم عن القول بالتعدد لذلك قالوا : إن معنى كون الصفات زائدة على الذات ، لا يقتضى القول بتعدد القدماء ، حيث ان هذه الصفات ملازمة للذات ، وغير منفكة عنها ، فلا يمكن تصور الذات بغير هذه الصفات ، فلا يمكن تصور العلم مثلا ، الا مضافا الى واجب الوجود بذاته ٠ وهو الله عز وجل ، وكذلك القول فى القدرة والارادة ٠

ويبدا الاشعرى البحث فى الصفات بمناقشة مخالفة البارى للحوادث ولعله اراد البدء بهذه الصفة ، ليزيد من التاكيد على القول ، بقدم القديم جل وعلا ، ومناقشته للمسالة تقوم على دفع اعتراض ، مؤداه ان

فمثلا التدليل على وجود الله تعالى ، لمن لا يؤمن بالله لا يمكن سوقه من كتاب او سنه ، بل لابد ان يتقدم ذلك سوغ دليل من امور عقلية وحسية ، يحصل بها الاقتناع .

ويصور الاشعرى طريقته في بناء منهجه ، في كتابه " استحسان الخوض في علم الكلام " ، قائلا :

"حكم مسائل الشرع التي طريقها السمع ، ان تكون مردودة الى اصول الشرع التي طريقها السمع . وحكم مسائل العقليات والمحسوسات ان يرد كل شيء من ذلك الى بابه . ولا تخلط العقليات بالسمعيات ولا السمعيات بالعقليات .) .

جـ ـ ولكن هل استطاع الاشعرى ان يحدد في منهجه وسطا دقيقا بحيث لا يميل به الى احد الطرفين : السلفيين والعقليين ؟

ان الحصول على هذا الوسط الدقيق ، امر عسير المنال لاسيما في المسائل الانسانية . فقد يكون ذلك سهلا في الرياضات والعلوم الطبيعية .

أما في العلوم الانسانية ، فان التحديد فيها يصطدم بكثير من الصعاب ولكن ليس معنى ذلك ان الاشعرى لم يحقق وسطيته المنهجية التي ارادها وانما حقق وسطا قد يشوبه الميل احيانا .

فالاشعرى ، وان وافق على استعمال العقل فالنص عنده مقدم على العقل . وفي بعض الاحيان يكون النص صاحب الصدارة في المسالة ففي مساله افعال العباد ، وحيث اراد الاشعرى ان يوفق بين القائلين بان الافعال كلها من خلق الله ، وهم اهل السلف ، وبين القائلين بان الافعال الاختيارية من خلق الانسان ، لم تنقذه فكرة الكسب التي افترضها حلا لهذه المشكلة ، حيث راى ان الفعل من خلق الله ، وان العبد كاسب للفعل ، لم ينقذه هذا الحل من الاقتراب من الجبرية

الباري يشبه الحوادث ، ويرد على هذا الاعتراض بانه لو اشبه الحوادث ، فاما ان يكون الشبه من جميع الوجوه ، فيصبح حادثا مثلها ، ومحتاجا الى من يحدثه ، وادى هذا الى التسلسل ، اما ان اشبه الحوادث من بعض الوجوه دون بعض ، كان محدثا بما اشبهها فيه ، قديما بما لم يشبهها ، وادى بذلك الى تناقض اذ يستحيل ان يكون المحدث لم يزل قديما ، اى يمتنع الجمع بين الحدوث وبين القدم فى وقت معا . (١)

وبعد ان فرغ من المناقشة العقلية ، التى يتضح فيها مدى بساطة الاشعرى فى مناقشته ، ياتى بالدليل النقلى ، وذلك وفق منهجه الذى يقوم على التوسط بين المنقول والعقل ، فيذكر قوله تعالى : " ليس كمثله شئ " سورة الشورى (اية ١١) وقوله " ولم يكن له كفوا احد " سورة الاخلاص (اية ٤) وقد عالج الاشعرى صفات المعانى وهى الصفات الداله على افعاله تعالى على النحو التالى

العلم :

لا يخالف الاشعرى المعتزله فى اسناد العلم لله تعالى لكنه يخالفهم فى مغايرة العلم للعالم ، فلا يمكن ان نتصور عالما بدون علم .

ولو جاز ان يكون العالم والعلم شيئا واحدا ، لجاز لاحد ان يقول ياعلم الله اغفر لى . فدل بذلك على ان لله صفة - هى العلم وهذه الصفة قائمة بذاته تعالى ، وليست نفس ذاته كما يرى المعتزلة .

وقد ساق دليلا عقليا على اتصافه تعالى بالعلم ، يتلخص فى ان ما فى الكون من اتقان الصنعة ، لا يكون الا من عالم ، اذ انه لا يمكن لجاهل ان يحدث كتابة ، او بناء . وبالاحرى لا يقع منه الاتقان . ثم دلل على

---

(١) (اللمع) لابى الحسن الاشعرى ص ٧

ذلك بامثله من المشاهدات ، كالذى يقع فى الفلك من نظام وفى حيـــاة الانسان من تدبير لمجارى طعامه وشرابه ، كل ذلك لا يجوز ان يقـــع الا ممن له علم ·

ثم اشار الاشعرى الى صفتى القدرة والحياة مدللا عليها ايضـــا بان وقع الاتقان وكمال الصنعة ، يستلزم الاتصاف بالقدرة والحياة اذ لا يجوز من عاجز او ميت ان يجرى الاشياء على هذا الاتقان ، وعلى ذلـك الاحكام · ومن خلال اثباته للقدره والارادة يخرج بالقول باتصافـــــه تعالى بالسمع والبصر ، اذ ان رفع هاتين الصفتين يوءذن بعجز وافـــة لا تليق به تعالى ، وهو العالم القدير الحى · وانما تجوز على المحدثات التى تجوز عليها الافات ، كالصمم والعمى وغير ذلك ·

تعقيـــب :

هكذا شغلت مشكلة الالوهية المتكلمين على اختلاف نزعاتهـــم ومذاهبهم واخذت منهم جهدا كبيرا بذلوه فى سبيل الوصول الى اعلـــى درجات التنزيه الالهى والبعد بالذات المقدسة عن التشبيه والتجسيـم واذا كان كل منهم قد اتخذ لنفسه اتجاها معالجة المشكلة ووصل الامـــر ببعضهم الى ابتكار الحلول لهذه المشكلة كما صنع الاشعرى حين طبـــق منهجه الوسطى على مسالة الصفات وقال انها ليست عين الذات وليست غير الذات وفرق بين نوعين من الغيرية ، غيرية ملازمة ، وهى عدم استغنـاء كلا من المتغايرين عن الاخر ، فالعلم لا يتصور بغير العالم ، والقدرة لا تتصور بغير القادر ، ·غيرية منفكة وهى امكان تصور احد الغيريـــن دون الاخر كالانسان والفرس والشجر والجبال فانهم جميعا كانوا يهدفـون الى الدفاع عن الدين والذود عن قضاياه ، ولقد انتجوا فى سبيل ذلـك علما لا يقل قدرا عن العلوم الفلسفية بل يمكن القول انه فلسفة المسلميـــن وهو علم الكلام ·

تـم بحمد الله